وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

قيمة العدل وأثرها في بناء الإنسان من خلال سورة النساء (دراسة في التفسير الموضوعي)

اسم الباحث/ـة

د/ يوسف إبراهيم جاه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله الذي شَرَحَ بكتابِهِ الصدور، وأخرجَ بنورِ هدايته عباده من الظلماتِ إلى النّور، فأنار بتلاوته بصائرهم، وهدى بشرعه حائرهم، وكتب الفوز والنجاة لمن صلحت بهدايته سرائرهم. ثم أما بعد:

فيأتي هذا البحث من منطلق الإرادة والرغبة المؤكدين لزيارة الأرض المقدسة: المملكة العربية السعودية عبر المشاركة في مؤتمر الهدايات القرآنية لبناء الإنسان من خلال بيان قيمة العدل في سورة النساء لو نظرنا نظرة شاملة وسريعة إلى الهدايات القرآنية في سورة النساء ومعارفها وأهدافها، اتضح لنا بجلاء أهمية العدالة حيث بينت وأظهرت أصولها وكلياتها وجزئياتها "الأخلاقية والإنسانية والسياسية والاجتماعية والحقوقية والقضائية والدولية ـ فردية كانت أو عائلية أو اجتماعية". فكما أن الدين كلّ الدين لا ينفك عن التوحيد فهو كذلك، لا يحيى إلا بروح العدل ولا ينفك عنه. فكل شيء يقيمه القرآن الكريم على أساس العدل والقسط ويمحوره حول قطبيهما.

فالعدل ركن المعاد والإيمان بالآخرة.. وهدف التشريع الإلهي السامي. وفلسفة البعثات السماوية والرسالات الربانية.. ومن شروط التصدي للمسؤولية التنفيذية في المجتمع الموحد.. وهو من مسؤوليات الفرد الأخلاقية والاجتماعية للإنسان المؤمن الموحد الهادف إلى بناء نفسه وبناء التاريخ، وبناء المجتمع الحضاري الذي يتطلع إليه البشرية.

ومن هنا جاء عنوان هذه المقالة بعنوان: (**قيمة العدل وأثرها في بناء الإنسان من خلال سورة النساء: (دراسة في التفسير الموضوعي)** وقد قسمته إلى مقدمة، وستة مباحث.

أما المقدمة: فهي هذه.

وأما المبحث الأول: فقد تناولت فيه: مفهوم العدل ودلالته ومشتاقه، ونبذة تعريفية لسورة النساء.

وأما المبحث الثاني: فقد بيّنا فيه عن العدل الاجتماعي ومظاهره ، وأثره في بناء الانسان من خلال سورة النساء ،وبينا أيضاً التصور القرآني للعدالة الاجتماعية ،والعدل مع النفس ،ومع السفهاء، وضوابط استقامة العدل داخل الأسرة ، وكيف يمكن بناء العدل في المجتمع ومنهج القرآن في ذلك ثم ختمنا المبحث ببيان طاعة الله والرسول أساس العدل وصمامه.

وفي المبحث الثالث: وضحنا كيف للإيمان والطاعة دور في إقامة العدل لأن الشرك أكبر المظالم وعليه سيكون أول مناقض للعدالة، كما أن طاعة الله ورسوله هو العدل الحقيقي.

وفي المبحث الرابع: عرجنا عن العدالة الاقتصادية مركزين في مسألة الميراث وتقسيماتها ومدى عدالة التقسيم الرباني فيها؛ لأن الأمر فيها حسب الواجبات والمسؤوليات لا حسب الجنس كما يتصور البعض، وقاصري الفهم عن القرآني للمسألة

وفي المبحث الخامس: شرحنا العدالة الدولية في هذه الهدايات الربانية المتعلقة بالعدل الدولي والتب ظهرت في موضوع: سرقة أحد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واتهامه يهودياً وإنصاف الآيات لليهودي ما يعني أن الإسلام: يضع قانون العدالة مع الجميع ولا يفرق بين مسلم وغيره.

وفي المبحث السادس: تطرقنا لبعض المخالفات الاجتماعية السلبية المؤثرة في إقامة العدل والتي لها دور بارز في عرقلة العدالة بكل أنواعها الاجتماعي والاقتصادي والفردي والجماعي، ومنها: فضول الكلام والفحش والرياء والنفاق وكلها أخلاق دمر العدل وتمنع من تحققه.

المبحث الأول: مفهوم العدل ودلالته ومشتاقاته في القرآن ونبذة عن سورة النساء:

أولاً: مفهوم العدل ودلالته ومشتاقاته في القرآن.

العدل هو ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو اسم من أسماء الله، تعالى، إذ هو، سبحانه، لا يميل به الهوى فيجور في الحكم. والعدل الحكم بالحق. والعدل من الناس المرضيُّ قوله وحكمه وشهادته[١]، والعدل هو الاستقامة، يقال هذا قضاء عدلٌ غير حَدْل، فالحدلُ ضدُّ العدل[٢]. والعدل هو الإنصاف[٣]. والعدل تقويم الشيء إذا مال ولو أدنى ميل، والعدل الحكمة. والعدل القسط، يقال أقسط إذا عدل وقسط إذا جار[٤]. وعَدَلَ الشيء بالشيء أي سواه به، وعَدَّلتُ الشهود: إذا قلت إنهم عدول[٥]. والعدل هو الأمر المتوسط بين طرفي

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٩م، مادة (عدل)؛ أبو بكر بن دريد، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ١٩٩١م، ص٣٤٥؛ ابن سيده، المحكم، طبعة معهد المخطوطات العربية الثانية، القاهرة ٢٠٠٣م، بعناية د. عبد الفتاح سليم ود. فيصل الحفيان، المجلد الأول، ج٢ ص٩؛ دكتور أحمد أبو حماقة (مشرفًا)، معجم النفائس الكبير، دار النفائس، بيروت ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج٢ مادة (عدل)؛ سلمة بن سالم العوتبي، الإبانة، تحقيق عبد الكريم خليفة وزملاؤه، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان ١٩٩٩م، ج٢ ص٥٦١

(٢) تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق دكتور رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١م؛ ابن سيده، المخصص، بعناية د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت ٢٠١٢م، ج٣ ص٤٨٥ .

(٣) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق محمد الزفيتي، وزارة الأوقاف، القاهرة ٢٠٠٨م، ج٢ ص٧٩؛ أشرف طه أبو الدهب، المعجم الإسلامي، دار الشروق القاهرة

(٤) المخصص، ابن سيده، السابق ص٤١٥ و٤٩٠ .

(٥) ديوان الأدب، أبو إبراهيم اسحق بن إبراهيم الفارابي،تحقيق دكتور أحمد مختار عمر، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٥م، ج٢ ص١٧٩ و٣٧٣؛ أبو البقاء الكفوي، الكليات، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٥٠؛ ابن فارس، السابق، ص٦٤٦.

الإفراط والتفريط، وهو الاعتدال والاستقامة والميل إلى الحق[١]. والعدل نقيض الجور، يقال «عَدَلَ بين الخصوم أي أنصف ولم يظلم[٢]» وعلى هذه المعاني المتقاربة يدور استعمال كلمة العدل، وكلمة القسط، في لغة العرب.

المراد بالقسط: إعطاء كل ذي حق حقه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، من غير تفرقة بين المستحقين ولأهمية العدل ومنزلته، بعث الله رسله وأنزل كتبه، لنشره بين الأنام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ والقسط: العدل، وهو قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد، به قامت السموات والأرض، وتألفت به الضمائر والقلوب والتأمت به الأمم والشعوب، وشمل به الناس التناصف والتعاطف، وضمهم به التواصل والتجانس، وارتفع به التقاطع والتخالف[٣].

وضعه الله تعالى لتوزّع به الأنصبة والحقوق، وتقدر به الأعمال والأشخاص، إذ هو الميزان المستقيم، الذي لا تميل كفته، ولا يختل وزنه، ولا يضطرب مقياسه، فمن رام مخالفته، وقصد مُجانيته، عرّض دينه للخبال، وعمرانه للخراب، وعزته للهوان، وكثرته للنقصان، وما من شيء قام على العدل، واستقام عليه، إلاّ أمن الانعدام، وسلم من الانهيار[٤].

ومن أهم دعائم السعادة، التي ينشدها البشر في حياتهم، أن يطمئنوا على حقوقهم وممتلكاتهم، وأن يستقر العدل فيما بينهم، وإلاّ فلا يعرف على وجه

---

(١) كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق د. عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩١م، ص١٧٠؛ محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت ٢٠٠٢م، ص٥٠٦؛ دكتور علي سليمان الزوبي، المساواة وعدها من المقاصد الكلية للشريعة، مجلة السراج المنير التي تصدرها رابطة علماء ليبيا، العدد الثاني، ربيع الأول ١٤٣٧هـ/يناير ٢٠١٦م، ص٥٥.

(٢) ، المكنز الكبير، دكتور أحمد مختار عمر ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، مادة (عَدَل).

(٣) القيم الإسلامية المؤلف ص ٢ الناشر: الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات

(٤) المرجع نفسه .

الأرض شيء أبعث للشقاء والدّمار، وأنفى للهدوء والاستقرار بين الأفراد والجماعات، من سلب الحقوق.

إذن العدل قيمة ضرورية في الإسلام، عمل الإسلام على إثباتها، وإرسائها بين الناس، حتى ارتبطت بها جميع مناحي تشريعاته ونظمه، فلا يوجد نظام في الإسلام إلاّ وللعدل فيه مطلب، فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم، والقضاء، وأداء الشهادة، وكتابة العهود والمواثيق بل إنه مرتبط أيضًا بنظام الأسرة والتربية، والاقتصاد والاجتماع، والسلوك، والتفكير، إلى غير ذلك من أنظمة الإسلام المختلفة وهذا يدل بوضوح على أن الإسلام ضمن قيمة العدل في جميع مجالات الحياة، بل إنه ركز كافة أهدافه على ضوئها، مما شهد له التاريخ على سلامة المجتمعات التي حكمها، من الانهيار الخطير في الأخلاق، وأمنها من اضطراب الموازين والمعايير، وصانها من دمار النفوس، وخراب العمران[1].

ولقد وضح الدكتور محمد حسن جبل لمعاني العدل ومشتقاته في القرآن الكريم وانتهى بعد استقراء مواضع الاستعمال القرآني لهذه الكلمة إلى أنها ترد في مواضعها كلها بمعنى العدل الذي هو ضد الظلم، اللهم إلا في أربعة مواضع.[2] ويذكر الإمام الدامغاني أن العدل في القرآن الكريم يفسَّر على

---

(١) القيم الإسلامية المؤلف: - ص : ٣ الناشر: الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية.

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠١٠م، ج٣ ص١٤٢٣. والمواضع التي أريد بها غير المعني المذكور هي: ولا يؤخذ منها عدل﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة:٤٨ و١٢٣]، فالمراد هنا الفدية؛ ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[المائدة:٩٥]، والآية فيمن قتل الصيد وهو محرم والمراد صيام أيامٍ تساوي قيمة الصيد المقتول، وللعلماء في تحديد تلك الأيام أقوال عدة، انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ط دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م عند تفسير الآية؛ ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾[الأنعام:٧٠]، أي إن تَفْدِ النفسُ الكافرةُ يوم القيامة بكل فداء لا يقبل منها؛ ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١]، أي يشركون بأن يُسووا بين الله تعالى وبعض خلقه. ومما يخرج عن معنى العدل الذي هو ضد الظلم –ولم يذكره– قوله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾[الانفطار:٧]، فمعناه جعلك أيها الإنسان معتدلا سَوي الخلْق. ↵

خمسة أوجه هي: الفداء، الإنصاف، القيمة، شهادة أن لا إله إلا الله، الشرك[١].

وقد ورد لفظ العدل وما اشتق منه في القرآن الكريم، تسع عشرة مرة، مستعملاً بمعاني الحكم بالحق، وضد الجور، والإنصاف، والقسط، والتسوية وما إليها، مما سبق ذكره[٢]. على أنه ينبغي التنبه دائمًا إلى أن المقاصد القرآنية هي أصل المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. ومقاصد القرآن مبسوطة في الكتاب العزيز كله لا يقتصر البحث عنها على الآيات التي ورد فيها اللفظ الدال عليها أو المؤدي معناها، وإنما يتجاوز ذلك للوقوف عليها بين دفتي المصحف الشريف، المرة بعد المرة، ليقف الراغب في التعرف على مقاصد القرآن الكريم، كيف لا وهو الذي لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه، ويظل غضًا في فم كل قارئ وقلبه ما أخلص النية في تلاوته، وقصد بها وجه الله تعالى .

ثانياً : نبذة عن سورة النساء:

أولاً : التعريف بالسورة:

-**اسمها:** سورة النساء[٣]، واسمها الآخر سورة النساء الكبرى[٤] .

- **عدد آياتها:** مائة وخمس وسبعون في عدّ الكوفيين، ومائة وستّ وسبعون في عدِّ البصريين، ومائة وسبع وسبعون في عدّ الشَّاميين[٥].

---

(١) الوجوه والنظائر، المرجع السابق، الموضع نفسه. وهو يرى أن العدل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾[النحل:٩٠]، يعني شهادة أن لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد، ص٨٠.

(٢) هذا العدد لا يشمل مواضع ورود لفظ (العدل) ومشتقاته حيث قصد به معنى آخر.

(٣) كما جاء في صحيح البخاري،كتاب فضائل القرآن،باب تأليف القرآن،ح(٤٩٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده...".

(٤) انظر: بصائر ذوي خبرة التمييز للفيروزابادي(١/١٦٩)، ط: مطابع شركة الإعلانات الشرقية\ القاهرة ١٣٨٤هـ

(٥) جامع لطائف التفسير للقماش(١٩\٢٩٣).

ما اختلف نزولاً عن السورة من الآيات: كل آيات السورة مدنية[١].

- **ترتيبها نزولاً**: تعد الثالثة والتسعين نزولاً؛ حيث نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة[٢] .

- **فضلها**: لقد تبوأت السورة مكانة سامقة ومنزلة رفيعة بين سور القرآن الكريم، ومما جاء في فضلها بشكل عام: قول النبي صلى الله عليه وسلم في شأن السبع الأول التي اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم آخذها حبراً : " من أخذَ السبعَ الأُوَلَ من القرآنِ فهو حبرٌ"[٣] ، وسورة النساء من بين هذه السور. كما أنها من السبعِ الطِّوالِ التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم مكانَ التوراة: كما ورد في حديث واثلةَ بنِ الأسقعِ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " أُعطيتُ مكانَ التوراةِ السبعَ...".[٤]

---

(١) مدنية كلها على اعتبار أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها، وعلى غير ذلك يكون قوله تعالى "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل..." تكون هذه الآية مكية لأنها نزلت بمكة يوم الفتح، انظر : اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٣٨/٦)، وكذلك قيل عن قوله تعالى: "ويستفتونك في النساء..."، انظر: قلائد المرجان للكرمي ص: ٨٢، وقال الإمام السيوطي : " زعم النحاس أنها مكية مستندا إلى أن قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ} الآية نزلت بمكة اتفاقا في شأن مفتاح الكعبة وذلك مستند واه لأنه لا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة نزل معظمها بالمدينة أن تكون مكية خصوصا أن الأرجح أن ما نزل بعد الهجرة مدني ومن راجع أسباب نزول آياتها عرف الرد عليه ومما يرد عليه أيضا ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ودخولها عليه كان بعد الهجرة اتفاقا. وقيل: نزلت عند الهجرة"، انظر: الإتقان (١\١٢) ط:المكتبة الثقافية بيروت لبنان.

(٢) التحرير والتنوير (٤ | ٤-٥)

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند(٢٤٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن".

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند(١٧٠٢٣)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه: "إسناده حسن"، وأخرجه البيهقي في الشعب(٢٤١٥)، وكذلك في سننه الصغرى(٩٧٨)، والطبراني في معجمه الكبير(١٨٦)، وغيرهم...

ومن الآثار الواردة في فضلها: قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " خَمسُ آياتٍ ما يسرُّني أن لي بِهِنَّ الدنيا وما فيها إحداهنّ: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء: 31.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ النساء: 40.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء: 48.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء: 64.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ النساء: 110 [1].

– **ظروف نزولها:** لقد كانت حياة المجتمعات برمتها مهددة بالتدمير الكلي لما شهدته من ظلام الجاهلية الشرسة الدامس، ولما عرفته من غطرسة هذه الجاهلية التي أصّلت كل انحراف عقدي، ولما تميز به كابوس هذه الجاهلية من إشهاره في وجه مكارم الأخلاق، ولما اتسمت به عنجهية هذه الجاهلية من تكريس لأساليب الاستعلاء والتمييز، ولما طوقت به هذه الجاهلية المجتمع من فوضى فرضت هرجاً في كل أوجه الحياة، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن الكريم لتصحيح العقائد، وإنقاذ الأخلاق، ونشر قيم العدل والمساواة،

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٩٤)، وصحح إسناده، وكذلك الذهبي في التلخيص، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٩٠٦٩)، وكذلك في الكبير(٨٩٧١)، والبيهقي في الشعب(٢٤٢٥)

وضبط حياة الناس بنظام متكامل، فبدأ المجتمع الجديد في المدينة المنورة يجسد هذا التحول الجذري بتطبيقه أحكام القرآن واحتكامه إلى حامل الرسالة، فكان لابد من نزول أحكام تفصيلية شاملة تتناول كافة أوجه الحياة الأسرية والاجتماعية، وتحدد روابط المجتمع وتقيم أود التكافل بين مكوناته، وتقدم أقوم نظام بشري قائم على أسس العدل والعدالة فنزلت سورة النساء مناسبة للجو العام لقيمة العدل.

فدعت سورة النساء الجميع إلى الاجتماع على دين الحنيفيّة السّمحة مستهلة بقول الله عز وجل: ﴿ يَأَيُّهَا النّاسُ اِتَّقُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا... ﴾ ، للتذكير بهدايات السور التي سبقتها، ولتقديم إطار لا لبس فيه لحماية حقوق المستضعفين، وقيادة الناس كافة إلى سبيل مكارم الأخلاق من الصدق والأمانة والوفاء والعدل والتواضع ورعاية الحقوق، وتبصيرهم بحقائق وأحكام وغايات هذا القرآن، وشد عزائمهم لمد يد العون إلى الإنسانية المعذبة لتعبيدها لله وحده وإنقاذها من أتون الضلال ومستنقعات الرذائل بصلاح الأنفس، وأطرها على الحق أطراً لتستقيم على أمر الله تبارك وتعالى مسلكاً ومنهجاً وحياة وواقعاً من غير استخفاء ولا مواربة؛ لهذه الأهداف وفي ذلك الظرف نزلت سورة النساء.

ثانياً: مقصد سورة النساء: بيان قيمة العدل:

بدأت السورة بالحثُّ على تقوى الله الخالقِ لهم من نفسٍ واحدةٍ وتحديدُ معالم التقوى، والأمرُ بتوحيدِ الله سبحانه، والإيمانِ بجميع الحق الذي جاءهم، والتوبةِ من الكفر والشرك والنفاق والمعاصي، فالإيمان بالله وتقواه ينتج قيامَهم بقيمة العدلِ والرحمةِ بينهم في جميع المعاملاتِ والعلاقاتِ التي تربط بين الخلقِ أفرادًا وأسرًا من الأرحامِ والأقرباءِ والجيرانِ ومجتمعاتٍ، لا سيما مع الضعفاء: كالنساءِ، واليتامى والمساكينِ، وابنِ السبيلِ، والسفهاءِ الذين لا يحسنون التصرف بمالِهم، وأهلِ الذمة، ومن يعمل عندهم كالعبيدِ والإماءِ، وينتج حفظَ

حقوقِهم، خاصة النساء اليتيماتٍ، الصغيراتٍ، والنساءً مستضعفاتٍ، وحفظَ حقهِنَّ جميعًا في الميراثِ والمهرِ وفي الكسبِ، وفي حقهِنَّ في أنفسهِنَّ، وحقوقهن الزوجية ما لهن وما عليهن، وتهدم ظلمَ المجتمعاتِ الجاهليةَ في ذلك، مع تحصين المجتمع داخليًا وخارجيًا.

فهذه السورة سورةُ العدلِ والإنسانيةِ تنظم العلاقاتِ الإنسانيةَ التي تربط الناسَ بعضَهم ببعضٍ بالعدل: الأسرةَ المسلمةَ، والمجتمعَ المسلمَ، وما ينبغي أن ينهجَه المجتمعُ الفاضلُ في جعل العلاقاتِ تسير في مجراها العادلِ المجردِ عن الأهواء والشهواتِ الذي رسمه رب العالمين، هادمةً ومزيلةً للظلم الفاشي في المجتمعات البشرية، وواضعةً الأسسَ للاستقرار الداخلي الذي أساسُه العدل الأسري، وصلاحُ التعاملِ بين أفرادِ المجتمعِ لا سيما فيما يتعلق بالمال في ظل تشريعٍ عادلٍ، والاستقرارُ الخارجيُّ الذي أساسه احتفاظ الأمةِ بشخصيتها وقدرتها على مقاومةِ الشر الذي يطرأ عليها، ذلك أن احتفاظ الأمم بكيانها يرتبط بهذين الأمرين العظيمين

المبحث الثاني: العدل الاجتماعي ومظاهره وأثره في بناء الإنسان من خلال سورة النساء

أهم ركن حضاري في البناء والتنمية وأعظم أساس تقام عليه الدول والنظم الاجتماعية وغيرها هي العدالة التي جاء الإسلام حاملا لواءها ومقيما لمعالمها إقامة لافتة بين التشريعات التي نظم بها شؤون الحياة، وقد ارتبطت العدالة في منظور الإسلام بمفاهيم عدة، ويمكن تناول كل مفهوم من مفاهيم العدالة التي جاء بها الإسلام بشكل مستقل ومنفصل عن الإسلام، مثل الحقوق والحرية والنظام والأحكام التشريعية الفقهية التي نظّر لها علماء الإسلام في مجالاتهم المختلفة، والتي ظهرت في هذه السورة بشكل أساسي وواضح لكن الخيط الرابط بين تلك المفاهيم هو العدل الذي تجلّى في نظام تشريعي محكم يراعي التدرّج والواقعية بين متطلبات التنفيذ ومقتضيات الحكم.

كما أن غياب العدل في حياة الأفراد والمجتمعات فإن ذلك يؤدي إلى ضعف القيم وفساد الأخلاق، وظهور الخلاف والشقاق، وفساد ذات البين، وقطع الأرحام وقسوة القلوب ويظهر الظلم بجميع صوره ويتسلط العدو وتُهضم الحقوق وتُعطل الحدود وتنهار الدول وينحسر المد الحضاري وغير ذلك..

وما تعطلت قيمة العدل في حياة أمة من الأمم إلا وحلت فيها بسبب ذلك آفاتٍ جائحةً، وزوايا قاتلةً، وبلايا مهلكةً، وفقرًا معوزًا، وذلاً معجزًا.

قال الإمام الماورديّ رحمه الله" :(إنّ ممّا تصلح به حال الدّنيا قاعدة العدل الشّامل، الّذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطّاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النّسل، ويأمن به السّلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنّه ليس يقف على حدّ، ولا ينتهي إلى غاية، ولكلّ جزء منه قسط من الفساد حتّى يستكمل[1]..) ".

[1] أدب الدنيا والدين للماوردي، ص١٤١

وما ذلك إلا لأن العدل قانون عام للأمم كلها. فلا يمكن لأمة أن تسود في الأرض وهي ظالمة.. فالعدل أساس الملك وأساس الاستقرار وأساس الازدهار.

كان شيخ الإسلام ابن تيمية هو أول من أشار إلى العدل باعتباره مقصدًا شرعيًا، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وأمور الناس تستقيم مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام..)[1]وقال أيضاً: «العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تَقُم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة.

أولاً: التصوّر القرآني للعدالة الاجتماعية من خلال السورة:

الإنسان مدنيّ بطبعه، يجنح إلى تكوين العلاقات، وبناء الروابط مع بني جنسه. فلا يستطيع أنْ يعيش بمعزلٍ عن غيره؛ لأن العزلة حين تكون طوعية، نوعٌ من الانتحار الذاتي. وحين تكون بالقوة والقسر، عقوبة صارمة تُتخذ ضد نوعٍ معين من المجرمين، أو عملية قتلٍ بطيء حين تُطبّق على إنسانٍ بريء[2].

فالإنسان يميل بطبعه إلى مخالطة الناس والتعامل معهم، وهو بحاجة إلى ذلك بحكم المصالح المشتركة، وحاجة كلّ إنسانٍ لأخيه الإنسان.

فلا يمكن له الاستغناء عن الآخرين في تحقيق مصالحه. وهذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم وبيّن أبعادها، تنبّه إليها عددٌ من العلماء وعلى رأسهم ابن خلدون في القرن الثامن الهجري[3]،

---

(١) مجموع الفتاوى. لشيخ الإسلام ابن تيمية ج/٢٨ ص/ ١٤٦

(٢) انظر: لاوند، رمضان: من قضايا الإعلام في القرآن، (مطابع الهدف)، ص١٧٦.

(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ابن خلدون، (بيروت: دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م)، ص٤١.

وما تزال الأيام تثبت لنا صدقها، ودقّة وصفها للسلوك الإنساني.

فقد بين لنا القرآن الكريم وخاصة سورة النساء أن الناس مهما تعددت أجناسهم وألوانهم فإن أباهم جميعاً هو آدم عليه السلام. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ النساء: 1 .

فالقرآن يُؤكد وحدة أصل الناس وصلة القُربى بينهم، باعتبارهم أخوة ينحدرون من أصل واحد. فإنّ هذا التوحّد في الأصل والمنشأ، حريٌّ به أن يقود الناس إلى العدل والقسط والتعاون والتفاهم والالتقاء على الخير والمحبة. وهذا كان واضحاً جداً في هذه السورة.

ويتبين مما سبق من منهج القرآن الكريم: أنَّ الأخلاق الإنسانية لا يمكن أنْ تَكْتمل، إلا من خلال حياةٍ اجتماعية صالحة، قائمة على أساس العدل الاجتماعي، والعلاقات الإنسانية النظيفة المبنيَّة على التعاون والتناصر والمشاركة والمحبَّة ونُكران الذات، ومعتمدة على عبادة الخالق عزَّ وجل، والخضوع لما تقتضيه ربوبيته.

وبالنظر في التصوّر القرآني لتنمية العدالة الإنسانية والاجتماعية، نجد أنَّ الرؤية القرآنية من خلال هذه السورة بُنيت على ثلاثة أمور[1]:

الأول: المسألة الأخلاقية، ذلك أنَّ الإلزام والمسؤولية والجهد المبذول لتحقيق العدالة الإنسانية وأثرها في بناء المجتمع المسلم، إنما هو قيمة أخلاقية عُليا، على الإنسان المؤمن أنْ يلتزم بها، باعتباره إنساناً واعياً جديراً بتحمّل هذه المسؤولية وهذا الشرف الرفيع. وهذه النقطة ينطبق على جل آيات هذه السورة تقريبا.

الثاني: أنَّ هذه السورة أكَّدت في حثِّه على صِلة الرحم، وإطعام الفقير والمسكين، وتكريم اليتيم، وأدب التعامل مع الآخرين، وغيرها من الأمور التي

---

[1] انظر: الأخلاق القرآنية، الأعرجي، زهير: (بيروت: دار الزهراء، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٢، ص ص(٢٣٤- ٢٣٥).

تُنمّي الصِّلات الإنسانية، وتحقق العدالة الاجتماعية على أنَّ هذه الأعمال إنما هي أمورٌ تَعبديَّة يتقرّب بها الإنسان إلى الله تعالى، ويُثاب عليها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ النساء: 2 .

وقال أيضاً : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ النساء: 6 .

الثالث: أنَّ هذه السورة أرادت للإنسان المؤمن أنْ يَصِل إلى مراحل متقدّمة من الكمال، فأراد بتثبيت العدالة الإنسانية والاجتماعية أنْ يُبرز مفهوم التكافل الاجتماعي، ومبدأ الحرص على شفافية العلاقة بين المسلمين خاصّة وبين الناس عامة. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ النساء: 8-9 .

ثانياً: العدل مع السفهاء والأنفس:

اشتملت آيات هذه السورة على بيان قيمة العدل في جميع القضايا الاجتماعية ومع جميع فئات المجتمع المختلفة، حتى السفهاء من الناس قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾ النساء: 5 .

والسفهاء هم الذين لا يحسنون إدارة أموالهم بحيث لو أنه ترك معهم لتبددت بسرعة. فحتى هذه الفئة من الناس لا يجوز أن تظلم أو أن تستغلّ، كما يفعل البعض بحجة سفاهة صاحب المال.

ثم تأتي الآية السادسة أيضاً لتقرر حق اليتامى في مالهم إذا بلغوا سن الرشد قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾ النساء: 6 .

والآية الثامنة تجمع بين العدل والإحسان قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨ ﴾ النساء:8 .

العدل مع الأنفس:

في معرض الحكم على النفس وفي معرض بناء قيمة العدل مع النفس ينصب القرآن الإنسان حكما على نفسه في هذا النص في معرض العدالة التي ينبغي تحقيقها بمقتضى القرآن الكريم، وهذا ما يتعسر على الإنسان القيام به:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ ﴾ النساء: 135 .

وكأن هذه الشهادة القضائية أمام محاكم الضمير الفردي حيث يرافع فيها الإنسان نفسه، مبالغة في تحقيق العدالة التي يجب أن تتحقق فتشهد ضد نفسك ووالديك؛ تلك هي العدالة التي تعجز قوانين الأرض عن تحقيقها مهما بلغت مرونتها ونزاهتها الاقتضائية بين الخصوم لبشريتها الناقصة عن مقام الكمال، وقول الحقيقة والبحث عنها وتحرّيها ليس فقط سمة للمصداقية والثقة بل أكثر من ذلك في نظر هذه الآية، ليكون وصية سماوية، يجب القيام بها واتباعها. وهناك عدالة أخرى مع النفس أيضاً وهي العدالة في تبليغ
ما يسند من مهام إلى صاحبها

قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ ﴾ النساء: 58 .

بنظرنا إلى دلالة هذه الآية يتسع نطاق دلالتها لتشمل كل المهن المسندة إلى الإنسان، فينبغي تأديتها بما يناسب نظام التعاقد عليها، وفي هذا الجانب من البعد الحضاري كثير حيث يقوم الإنسان بتأدية مهامه اليومية بناء على توجيهات سماوية إلهية توقظ ضمير الإنجاز بعيداً عن الرقابة المديرية أو الرئيسية أو السلطوية التي يمكن التحايل عليها، والتعلل فيها بوسائل معينة في أغلب الحالات التي تقع فيها مخالفات للأمانة وتساق لها التبريرات المعهودة.

ومن العدالة مع الأنفس احترام الملكية الفردية والجماعية فقد قال تعالى: قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾ النساء: 29 .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] .

وأوّل ما أمرت به هذه الآيات في بيان العدل في الأنفس والأموال منع أكل أموال الناس من غير أساس من التعامل المشروع أو الإنتاج مما أخرجت، ومن التحويل في الصناعات المختلفة،

وإن هذا النص يدل على أمور:

أولها: النهي عن أكل مال الناس بالباطل، أي: بغير حق موجب.

وثانيها: أنَّ أكل الناس بالباطل وشيوعه مثل شيوع الرشا والربا، وغيرهم من المعاملات الفاسدة التي تتضمَّن في ذاتها أكل الأموال بالباطل يؤدي إلى ضياع قوة العدل وضعف الأمة، وتقل روح التعاون في الجماعات، ولذا كان قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وخلاصة الآية أنَّ

الأصل للعلاقة بين الناس في المعاملات المالية هو مراعاة العدالة ومنع الظلم والخيانة لأن هذه الأشياء تؤدي إلى الانتحار الفردي والجماعي.

ثالثاً: ضوابط استقامة العدل داخل الأسرة:

مع أن الأمر بالعدل يأتي التشديد على وجود ضوابط حتى تستقيم الأمور ولا تتجاوز الحدود المسموح بها. كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ ﴾ النساء: 34 .

فالتسلسل واضح فيها فالأول يبدأ بالوعظ ثم الهجر في المضاجع وأخيراً الضرب والضرب جاء في حالة النشوز وجاء متأخراً في الترتيب فجاء بعد الوعظ والهجر فإذا لم ينفع أياً من هذه الأمور يتركها عسى الله أن يبدله خيرا منها.

فما أعدل الإسلام وحتى الضرب الوارد في الآية لاينافي العدالة وهناك من ينظر إلى الإسلام بنظرة الوحشية والهمجية لأجل إباحة ضرب المرأة في الآية السابقة جاهلا أو متجاهلا ما تسببه الطلاق من ضياع الحقوق بالنسبة للأولاد الذين يتشردون بعد الطلاق، فاتباع وسائل الحفاظ على الزواج ولو بالضرب يعدّ عدلاً.

المبحث الثالث: الإيمان والطاعة وأثرهما في إقامة العدل:

١ – منع الشرك واتباع الأهواء:

تعود آيات السورة للحديث عن العدل فتحذّر من الشرك بالله قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ﴾ النساء: 36 .

ولماذا ختمت الآية بالنهي عن الخيلاء والكبرياء لأن الربط بين القضايا الاجتماعية والإيمانية لبيان العلاقة بين الأخلاق والإيمان. لأن أعظم الظلم الشرك كما ورد في سورة لقمان) (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم) ولذا اتفق العلماء على أن الشرك هو أكبر ظلم في المجتمع، فما دام هو أكبر ظلم فهو مناقض للعدل بحيث لا يجتمع العدل مع الظلم أبدا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي هذه الآية نرى الله سبحانه وتعالى مازج بين الغنى والفقر لبيان قيمة العدل والتساوي فيهما العبرة بالعدل لا بالغنى.

وقوامين هي لفظة مبالغة تعني: شديدي القيام بالعدل. والآية تحذّرنا من اتباع الهوى لأنه عامل خطير في التسبب بظلم الناس

٢ – طاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم أساس العدل:

وهذا المعنى واضح في الآية قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ النساء: 59 .

فالاحتكام إلى شرع الله وردّ كل خلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله هما صمّام العدل وحقيقته في المجتمع وإن بدا فيهما غير ذلك، كما هو واضح في الآية (٦٤)، فإذا عصى المؤمن أوامر الله ورسوله فيكون قد ظلم نفسه وظلم المجتمع قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ ﴾ النساء: 64 .

فكيف نحقق تمام العدل؟ تجيب الآية (٦٥) بوضوح شديد) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾ النساء: 65 .

وهذه الآيات تأمر المؤمنين أن يعرضوا أنفسهم على كتاب الله وعلى سنة النبي ويسلّموا بحكم النبي، وإياهم أن يترددوا أو يتحرجوا من أوامر النبي لكي يشهد النبي على عدلهم في الآخرة.

والاحتكام إلى شرع الله عدل فالعدل فضيلة تضمن لصاحب الحق حقه بعيدًا عن الظلم والعدوان، وينظر الإسلام إلى العدل نظرة شاملة تعم التشريع كله وبذلك تتضمن كافة العلاقات، والمعاملات الإنسانية سواء أكانت بين المسلمين بعضهم مع بعض، أو كانت بين المسلمين وغيرهم يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

المبحث الرابع: العدالة الاقتصادية ومظاهرها من خلال السورة:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ النساء: 7– 12 .

يتمظهر أيضاً مقصد العدل في التعامل مع مستوى مرادفات موضوع العدل حسب السياق الملائم لمجال توزيع الأرزاق والثروة على قاعدة أن المال

لله وأن الإنسان مستخلف في الإنفاق في وجوه البر المشروعة. وإذا كانت أرزاق الله لا حد لها فإن تقسيم التركة على الورثة من الذكور والإناث من الأبناء والبنات وأقرب المقربين للميت يعتبر أحد أبوابه وفق ميزان إلاهي دقيق يخفض النصيب من الرزق ويرفعه ويقلله ويكثره مراعاة للأصول والفروع ومن تجب عليهم النفقة ومن لاتجب عليهم من أصناف الإناث حسب المراتب وأنواع الرجال وفق الدرجات درءاً لكل ظلم وسعياً لإرضاء النفوس المفطورة على حب المال وامتلاكه.

ولعل أهم ما في نظام الإرث في السورة العظيمة النظام الكسري الدقيق الذي يستحضر كل احتمالات التقسيم تعالج تسعين في المائة من قضايا الإرث ويحصرها في أربعة عشر احتمالا فيها إنصاف كامل للمرأة التي كانت محرومة من الإرث عند حضور الذكر سواء في التوراة الذي لحقه التزوير وكذا في نظام الجاهلية وفي الكثير من الأنظمة الوضعية البشرية في عصرنا الحاضر وعلى رأسها النظام الفرنسي في بلداننا الافريقية.

كما ينصف نظام الإرث في القرآن الأب والأم وزوجة صاحب التركة وأقرب المقربين للمتوفى وفي هذه الأطراف المرأة حاضرة بكل ثقلها أيضاً. كما يقدم قسمة النصف أو السدس أو الثمن أو الثلث أو الربع في ثلاث آيات هي الآيات :١١ : وتختص بقسمة الأصول والفروع : الأب والأم والأبناء من الذكور والإناث والآية ١٢: التي تتعرض لنصيب الأزواج والإخوة والأخوات من جهة الأم والآية ١٧٦ : التي تختص بقسمة الكلالة من الأب أو من الأب والأم حصة الأخت والإخوة في حالة عدم وجود الأبناء بأسلوب حسابي معجز يتميز بالإيجاز والتكثيف والوضوح والدقة والشمول.

إن سورة النساء خطاب حقوقي شامل ومنصف لجنس المرأة يقارب المسألة النسائية من منظور اجتماعي نسقي وازن يرد للمرأة وضعيتها الاعتبارية ويمنحها هامشا من المبادرة بقسمتها في الإرث ويحدد بدقة رسالاتها الأسرية

والمجتمعية كشريك فاعل وأساسي للرجل من منظور الشقائقية لاالندية مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: » النساء شقائق الرجال » وقوله صلى الله عليه وسلم: » خيركم خيره لنسائه وأنا خيركم لنسائي [1]»

مما يجعل المرأة المسلمة ترضى بعدل الله وتعمل على طاعته والوفاء بواجباتها تجاه خالقها سبحانه لتتحرر من كل العبوديات المادية والثقافية والاجتماعية والنفسية والقانونية الوضعية فتكون بمنأى عن كل التفاف رجولي مغرض على حقوقها يسوق صورتها الطاهرة تسويقاً إشهارياً تجارياً أو سياحياً جسدياً .

هذا التقسيم هو العدل والعدالة لأن تقسيم الإرث ليس على أساس الأفضلية، وليس بنسبة متساوية بين الذكر والأنثى، بل على أساس الواجبات والمسؤوليات لكل واحد منهما. فالرجل عنده مسؤولية النفقة على بيته وزوجته. بينما المرأة ليس عليها أي واجب للنفقة وإذا تزوجت فعلى زوجها أن ينفق عليها وتبقى لها حصتها من الإرث خالصة لها.

---

(١) مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد المؤلف: شهاب الدين أبو الفضل بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)
المحقق: صبري بن عبد الخالق أبو ذر رقم الحديث : ١٠٣٧
الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان
الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م

المبحث الخامس: العدالة الدولية ومظاهرها من خلال السورة:

تؤكد هذه المضامين الأخلاقية عدالة الإسلام في التصور ونظرته إلى بناء العلاقة مع الآخر المخالف بحيث يجب بمنطق العدالة أن يعامل كل الناس بعدالة مهما اختلفوا في الدين والمعتقدات، وهذا ما يجعل مشروع الإسلام حضاريا في بنيته وتقبله للوفاء والعدالة بين بني البشر على حد سواء.

إن العدالة من منظور الإسلام مشروع حضاري ذو أبعاد أخلاقية وإنسانية، ولا يتحقق أو يقوم المشروع الحضاري لأي أمة إلا من منطلق العدالة التي خلقت الإنسانية لتحقيقها بين جميع أفراد مكوناتها البشرية، وهذا ما يصوّره القرآن الكريم في أسلوب أمميّ حضاري

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣ ﴾ النساء: 105 - 113

والعدالة كما تكون بين الآحاد تكون بين الجماعات والدول، فقد قامت العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدالة، فلا يظلمون شيئًا، ولا

يمنعون من خير، والناس جميعًا نسبتهم إلى الله واحدة، لقد كانت الدول حتى التي بلغت شوطًا من الحضارة في عهد نزول القرآن كالفرس والرومان واليونان لا تعترف بأي حق لغير المستوطنين معهم، فغيرهم يعدون برابرة، وليسوا منهم في شيء[1].

الذين يعيشون في حكم الرومان لا يعتبرون رومانيين، ولا يمنحنون هذه الرعوية وتلك الجنسية، باعتبار أنَّ الجنسية الرومانية شرف لا يحوزه إلَّا الرومان، وكذلك كان الفرس وغير ذلك

وقد يعبر عن العدالة الدولية ما يمكن أن يصطلح عليه: العدل مع الأقليات غير المسلمة في المجتمع المسلم. وذلك أن أحد المسلمين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم سرق واتّهم يهودياً. علِم مسلم آخر بالأمر وشهد زوراً حتى لا يتعرّض المسلم للحد وذلك تحت حجة الأخوة. وبما أن العدل من مبادئ الإسلام العظمى ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول العاملين بها، كان الله تعالى يصوبه إذا أخطأ في حكم أخذ فيه بظاهر دعوة الناس[2]، وهذه الآيات مثال واضح في هذا الأمر.

وخلاصة ما تفيده هذه الآية: قيام العدالة وأنها من أهم ركائز التحضر والحضارة لأي مجتمع أو أمة تريد أن يكون لها مشروع ينافس في ميادين الحياة والعطاء، فالعدالة نماء وعطاء زاهر.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ) ص ٣١٠الناشر: دار الفكر العربي

(٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني المؤلف: أحمد أحمد غلوش ص / ٧١٢ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيعالطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م

وقد قال الواحدي في سبب نزولها ثلاثة أقوال[1]:

أحدها، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتمست الدرعَ عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف: ما لي بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتّبعوا أثر الدّقيق حتى انتهوا إلى منزلي اليهودي فأخذوه، فقال: دفعَها إليَّ طعمة، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليجادل عن صاحبنا فإنه بريء، فأتوه فكلموه في ذلك، فهم أن يفعل، وأن يعاقب اليهودي، فنزلت هذه الآيات كلها. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً من اليهود، استودع طُعمة بن أبيرق درعاً، فخانها، فلما خاف اطلاعهم عليها، ألقاها في دار أبي مُليل الأنصاري، فجادل قوم طعمة عنه، وأتوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يبرئه، ويكذّب اليهودي، فنزلت الآيات. هذا قول السدي، ومقاتل.

والثالث: أن مشربة «١» رفاعة بن زيدُ نقبت، وأخذ طعامه وسلاحه، فاتهم به بنو أبيرق، وكانوا ثلاثة: بشير، ومبشّر، وبشر، فذهب قتادة بن النعمان إلى النبيّ عليه السلام فقال: يا رسول الله إن أهل بيت منّا فيهم جفاء »نقبوا مشربة لعمّي رفاعة بن زيد، وأخذوا سلاحه، وطعامه[2]. فنزلت الآيات

---

(١) «أسباب النزول» الواحدي ص/ ٣٦١ بدون إسناد، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» ١/ ٥٦١: ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وانظر «أسباب النزول» ٣٧٣ و ٣٧٤ للسيوطي

(٢) أ «أسباب النزول» ٣٦١ بدون إسناد، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» ١/ ٥٦١: ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وانظر «أسباب النزول» ٣٧٣ و ٣٧٤ للسيوطي.وأخرجه الطبري ١٠٤١٧ من رواية سعيد عن قتادة مرسلا مع اختلاف يسير. ويشهد لهذا الخبر الحديث الآتي برقم ٣٦٠.مرسل. أخرجه الطبري ١٠٤٢٠ عن السدي مرسلا، ويشهد لأصله ما بعده.حسن. أخرجه الترمذي ٣٠٣٦ والحاكم ٤/ ٣٨٥ والطبري ١٠٤١٦ من حديث قتادة بن النعمان، وفيه ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

تخاطب المسلمين خطاباً شديداً﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾ثم تشتدّ اللهجة على الظالم﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ فشهد الله تعالى من فوق سبع سماوات ببراءة اليهودي مما نسب إليه ليرسخ في الإسلام هذه القواعد الحضارية في التعامل مع الديانات الأخرى.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: وقوله ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ ﴾احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها» .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بينة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة»

فبكى الرجلان وقال كل منهما حقي لأخي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما. ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه[1]»

[1] تفسير القرآن العظيم ابن كثير ١/ ٥٦٣

المبحث السادس: مخالفات اجتماعية سلبية مؤثرة في إقامة العدل والعدالة من خلال السورة.

١. النهي عن فضول الكلام والخوض في الباطل:

حثَّ القرآن الكريم على الابتعاد عن فضول الكلام وعدم الخوض في الباطل، والالتزام بهذا التوجيه القرآني مِنْ شأنه أنْ يَصُبَّ في بناء مجتمعٍ متماسكٍ يبتعد فيه الناس عن الثرثرة والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ النساء: 114 .

فهذه الآية القرآنية تُوجِّه المؤمنين إلى أنْ يكون كلامُهم هادفاً، فإنَّ من شأن المسلم الواعي ألا يخوض فيما لا يعنيه، وألا يُكثر من الكلام المباح غير الهادف والذي لا خير فيه، فإنَّ الوقت أثمن من إضاعته في فضول الكلام وهَذَرِه.وكثرة الكلام تؤدي إلى قسوة القلب، فقد وَرَدَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاُ تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي»[1]. ولا شكَّ أنَّ قسوة القلب مع الله تؤدي إلى قسوته مع الناس، مما يُلقي بظلاله السيئة على الاتصال بالآخرين، وعلى العلاقات الإنسانية بشكل عام.

٢. النهي عن السب والفحش في القول:

للسب واللعن والفحش في القول أضرار كثيرة، ففيها إيذاءٌ للمسبوب، وإيغارٌ للصدور، وقَطْعٌ للعلاقات والمودَّات، وزرعٌ لبذور الفتنة والشقاق، وذلك لما تجلبه من العداوة والبغضاء، وتجرُّه من المنازعات والمشاحنات التي قد تنتهي بأوخم العواقب وأسوأ النتائج، فتتفكك عُرى المحبة، وتنقطع روابط الأُلْفة،

(١) رواه الترمذي وقال: حسن غريب. انظر: السنن، كتاب الزهد، باب (٦١)، حديث رقم ٢٤١١، ج٤، ص٦٠٧.

ويحل الفساد محل الصلاح، والخصام محل الوئام، فتسوء الأحوال وتضطرب الأعمال.ونتيجة لهذه الآثار السيئة التي يتركها السباب وفحش القول على العدالة الإنسانية، جاء التوجيه القرآني ليحث على تجنب النطق بالألفاظ البذيئة، والكلمات المبتذلة. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ النساء: 148 .

قال ابن كثير قَالَ [عَلِيُّ] بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يَقُولُ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ قَدْ أُرْخِصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ إِلا مَنْ ظُلِمَ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ[1].

٣ – خطر النفاق على العدل:

وهذه السورة من السور التي ذكرت موضوع النفاق[2] بشكل واضح وصريح وما ذلك إلا لخطورته على العدل فالنفاق مرض خطير وخلق سيئ وجرم كبير وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر.. والنفاق أخطر من الكفر وعقوبته أشد لأنه كفر بلباس الإسلام وضرره أعظم ولذلك جعل الله المنافقين في أسفل النار كما قال جاء في هذه السورة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ النساء: 145 .

فالمنافقون دائماً في حيرة وتقلب وفي خداع ومكر ظاهرهم مع المؤمنين شيء وباطنهم مع الكافرين شيء آخر، حيناً مع المؤمنين

وحيناً مع الكافرين ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ النساء/١٤٣.والمنافقون لفساد قلوبهم أشد الناس إعراضاً عن دين الله كما أخبر الله عنهم بقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢/ ٤٤٢

(٢) قريب إلى ربعين كاملين يتحدث عن المنافقين ودورهم في خلق بيئة مضطربة للمسلمين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ النساء: 61 .

وربما لهذا قال بعض العلماء بأن سبب ذكر المنافقين هو التنبيه إلى أن انتشارهم في المجتمع هو أعظم سبب لتضييع العدل وتضييع حقوق الضعفاء، فهم يفسدون المجتمع ويضيّعون قيمه وخاصة قيمة العدل وقال ابن القيم مبينا خطر النفاق: وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر فإنه أمر خفي على الناس وكثيرا ما يخفى على من تلبس به فيزعم أنه مصلح وهو مفسد(١).

والمنافقون يتربصون بالمسلمين الدوائر، فإن كان للمؤمنين نصر وغنائم قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكفار نصيب قالوا ألم نكن معكم ضد المؤمنين. ألا ما أسفه المنافقين؟ .. حقاً (٢)إن المنافقين هم الكافرون:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ النساء: 141 .

والنفاق من الأمراض الاجتماعية التي تفسد العدل والإيمان وتعكر صفوة المجتمع وهو خطير جداً على العدل.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ج / ١ ص / ٣٥٤ المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م

(٢) موسوعة فقه القلوب المؤلف: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري ج / ٢ ص / ١٢٠٩ الناشر: بيت الأفكار الدولية

الخاتمة

خلال دراستنا للمباحث السابقة خرجنا ببعض النتائج الهامة

وهذه النتائج مجتمعة تبرز بصفة عامة قمية العدل وأثرها في بناء الإنسان، ولا أريد هنا عرض جميع تلك النتائج عرضاً مفصلاً بل أرى الاقتصار على **خلاصة ما هو ضروري كالتالي:**

عرفنا أن العدل: في القرآن الكريم يفسَّر على خمسة أوجه هي: الفداء، الإنصاف، القيمة، شهادة أن لا إله إلا الله، الشرك وأن لفظ العدل ورد وما اشتق منه في القرآن الكريم، تسع عشرة مرة، مستعملاً بمعاني الحكم بالحق، وضد الجور، والإنصاف، والقسط، والسوية وما إليها، مما سبق ذكره.

كما رأينا نبذة عن سورة النساء: **عدد آياتها:** مائة وخمس وسبعون في عدّ الكوفيين، ومائة وستّ وسبعون في عدِّ البصريين، ومائة وسبع وسبعون في عدّ الشَّاميين كما أن رسالتها العامة بيان قيمة العدل.

كما تناولنا في هذا البحث: جميع مظاهر العدل والعدالة ومع جميع الفئات المجتمعية : العدل الاجتماعي والاقتصادي والدولي والعدل الفردي والجماعي بل إن العدالة من منظور هذه السورة ومن خلال هداياتها هي : مشروع حضاري ذو أبعاد أخلاقية وإنسانية، ولا يتحقق أو يقوم المشروع الحضاري لأي أمة إلا من منطلق العدالة التي خلقت الإنسانية لتحقيقها بين جميع أفراد مكوناتها البشرية، وهذا ما يصوّره القرآن الكريم في أسلوب أمميّ حضاري؛ لأننا رأينا أن هذه السورة لم تفرق بين الناس في مسألة العدل بسبب الجنس أو الديانة أو العرق، فحقوق الإنسان مكفولة في الإسلام باعتبار أن كل البشر عند الله بمكانة واحدة من حيث العدل بينهم، ولا تمييز بين الناس إلا في مسألة الطاعة لله سبحانه وتعالى والتقوى.

كما أن من هدايات هذه السورة :

التحذير من الأخلاق المدمرة للعدل والعدالة أو سميها مخالفات اجتماعية سلبية ومؤثر على العدالة وإقامة العدل

ومنها: البخل والرياء والنفاق وفضول الكلام وعدم الخوض في الباطل، والالتزام بهذا التوجيه القرآني مِنْ شأنه أنْ يَصُبَّ في بناء مجتمعٍ متماسكٍ يبتعد فيه الناس عن الثرثرة والإكثار من الكلام الذي لا حاجة إليه.

كما أن استخلاص أثر العدل في بناء الفرد والمجتمع والرقي بهما هدايات واضحة من خلال قضايا سورة النساء.

كما يلاحظ من خلال هذه المقالة محاولة الإشارة إلى محل الشاهد من الآيات وعدم شرحها شرحاً تحليلاً خوفاً من الإطالة وحرصاً على الاتباع المنهج الموضوعي لكتابة هذه المقالة.

قائمة المصادر والمراجع

١- الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق دكتور رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١م؛ ابن سيده، المخصص، بعناية د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت ٢٠١٢م .

٢- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٩م ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ١٩٩١م، طبعة معهد المخطوطات العربية الثانية، القاهرة ٢٠٠٣م،

٣- معجم النفائس الكبير، دار النفائس، بيروت ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، تحقيق عبد الكريم خليفة وزملاؤه، وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان ١٩٩٩م.

٤- أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي، المتوفى ٤٥٠ هـ، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

٥- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠٨هـ.

٦- الأخلاق القرآنية، الأعرجي، زهير: (بيروت: دار الزهراء، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)،

٧- التحرير والتنوير لمحمد طاهر بن عاشور.

٨- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٩- التلخيص) للذهبي. الناشر: دار الكتاب العربي (بيروت) د. ت

١٠- التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت ٢٠٠٢م، ص٥٠٦؛

١١- الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٥هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

١٢- الجامع الصحيح محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، في تحقيقه لكتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط٢، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
١٣- الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ
١٤- السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني المؤلف: أحمد أحمد غلوش ص / ٧١٢ الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م
١٥- القيم الإسلامية المؤلف الناشر: الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.
١٦- الكليات، أبو البقاء الكفوي ، تحقيق د.عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .
١٧- المحرر الوجيز، ابن عطية، ط دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
١٨- المساواة وعدها من المقاصد الكلية للشريعة، مجلة السراج المنير التي تصدرها رابطة علماء ليبيا، العدد الثاني، ربيع الأول ١٤٣٧هـ/يناير ٢٠١٦م.
١٩- مجموع الفتاوى" لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، المعروف بابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: ١٤١٦ هـ١٩٩٥ م.
٢٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
٢١- المسند أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩١م

٢٢- المعجزة الكبرى القرآن المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت ١٣٩٤هـ) الناشر: دار الفكر العربي.
٢٣- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠١٠م.
٢٤- المعجم الكبير أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.
٢٥- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق محمد الزفيتي، وزارة الأوقاف، القاهرة ٢٠٠٨م، أشرف طه أبو الدهب، المعجم الإسلامي، دار الشروق القاهرة.
٢٦- بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي(١/ط/: مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة ١٣٨٤هـ.
٢٧- جامع البيان في تفسير آي القرآن، ابن جرير الطبري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ
٢٨- جامع لطائف التفسير للقماش.
٢٩- ديوان الأدب أبو إبراهيم اسحق بن إبراهيم الفارابي، ، تحقيق دكتور أحمد مختار عمر، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
٣٠- شعب الإيمان للبيهقي = الجامع لشعب الإيمان.
٣١- قلائد المرجان للكرمي .
٣٢- كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني تحقيق د. عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩١م،
٣٣- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي- مكتبة نصير بالأزهر.
٣٤- مقاييس اللغة: احمد بن فارس، ت ٣٩٥ هـ تح عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٦٦ هـ.
٣٥- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ، (بيروت: دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م).

٣٦- من قضايا الإعلام في القرآن، لاوند، رمضان: (مطابع الهدف).
٣٧- موسوعة فقه القلوب المؤلف: محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري ج / ٢ ص / ١٢٠٩ الناشر: بيت الأفكار الدولية